

عصوبة الاحتجاج وضرورتها في القرن العشرين بقلم الدكتور عبدالغفار مكاوي

لجانِب واحد من الوجود ، بينما المفكر أو لنقل الفيلسوف يتجه بفكره الى كل الوجود ؟

ان كلمة « لا » تحد وتحدد . اليس في هذا شيء من العزاء لمن يريد ان يصل الى قلب الوجود، ويطأ خاشعاً قدس اقداسه ؟ الا تستطيع ان تسد الطريق على كل جواب سهل في مسألة المسائل هذه، وان تسكت كل « نعم » بسيرة وسطحية ومؤقتة تزعم انها تنبئنا بشيء عن الوجود ؟ الا يستطيع قائل « لا » ان يكون حارساً أميناً على الوجود فيبدأ بحراسة نفسه من عواقب « لا » تحتج وحسب ، ولا تجلب على نفسها غير الخراب ؟

مهما يكن من شيء فان قول لا تعبير عن احتجاج . وفي عالم يعطي لنا من الصباح الى المساء اكثر من مناسبة للاحتجاج ، يصبح من حقنا ان نبحت عن طبيعة هذه « اللا » . والبحث هنا ضرورة لنعرف كيف نقولها ومتى ولن ، ولنضمن الا تكون مجرد صرخة نبيلة في الهواء، او كتابة بالدم على سطح الماء !

لنفكر معا في امر هذه « اللا » . . .

ولكننا قبل ان نبدأ التفكير فيها ، سنجد انفسنا مضطرين الى التفكير في الفكر نفسه ! والفكر عادة يسير خطوة فخطوة ، على حسب منهج مرسوم . وهو يصطدم باول عقبة على هذا الطريق ، حين يسأل نفسه في أي شيء يفكر . فهو يجرب هذا وذاك ، وينظر هنا وهناك ، ويسير على طريق قد يعدل عنه بعد قليل ليسير على طريق سواه. حقا ان فيلسوفا يونانيا قديما هو « بارميندس » ، قد عرف طريقين لا نالت لهما : طريق الحقيقة الذي يسير فيه العارف ولا يسير على طريق غيره حتى يصل الى الوجود الواحد ، وطريق الباطل الذي يسير فيه الجاهل او تسير فيه العامة « المزوجة الرؤوس » ليؤدي بها الى اللالاجود . فالطريق الاول هو الطريق الذي لا طريق سواه ، وفي اخره سنجد الوجود الواحد الذي لا يتبدل ، الوجود الكروي الشكل، المحدود بحدود ثابتة . ان العارف يسير عليه ، ويعرف كلمة السر التي توصل اليه ، اما العامة « الاغبياء » كما يسميهم فهم يجهلون هذه الكلمة ، ويترنحون حائرين بين الطريقين . ذلك لانهم يجهلون هذه الكلمة القاطعة التي قالها فيلسوفنا احتجاجا على اللالاجود وتأكيدا للوجود الحي . « اللالاجود غير كائن ، والوجود كائن . » ولكن كيف اعرف هذا الطريق ؟ كيف اقرب من الوجود الحي ، لا الوجود الميت المتحجر ؟ كيف اصل الى الوجود الشامل الذي اراده الفيلسوف ، فأميزه عن الوحدة الميتة التي تجمع الحق والباطل ، والوجود واللالاجود ؟ هل اجعل منه موضوعا لذاتي المفكرة ؟ ولكن هذا الفعل نفسه يشبه ويحدده كما يحددي . انه يجعل الذات تصطدم بالموضوع فانحرك في مجال لا أستطيع ان افرق فيه بينهما . ولكنني مضطر الى هذه التفرقة ، والا اختلفي الموضوع الذي ابحث عنه . فهل اجأ أمام هذا الموضوع الشامل - موضوع الوجود - الى اصدار حكم غلبته يوحد بيني وبينه ؟ ولكن من أين لي ، وأنا البشر المحدود ، بهذه القدرة ؟ اليس من طبيعة الاشياء ومن طبيعتي البشرية أن يظل الموضوع على الدوام « موضوعا » أمامي ، مقابلا في كل كلمة أو إشارة أو فعل اقرب به منه ؟ ها انذا أجرب طريقا بعد طريق . . . وأصدر حكما بعد

هل هناك اسهل من قول لا ؟

كلمة صغيرة ، نقولها حين نصبح وحين نمسي . . . وقد توفر على انفسنا مشقة النطق بها ، فنكتفي بهز الرؤوس .

حرفان صغيران، نسرع اليهما حين ننفي ، او نرفض ، او نحجم، او نرد على سؤال من يسأل فنؤكد له اننا لا نعرف ، او نقطع بعصم معرفته فنمهد للجواب الصحيح .

لا ونعم . حرفان يقتسمان وجودنا وتسدور حولهما حياتنا نسيا وتفكيرنا. في كل ما نقول ونفعل لا بد لنا ان نتجذب لاحد هذين القطبين ، او ندور في احدي هاتين الدائرتين .

حرفان لا يبدو ان هناك ما هو ايسر منهما ، نطق بهما مع كسل سؤال وجواب ، ومع ذلك فما اكثر ما يرتبط بهما من صعوبات !

لنقصر حديثنا على الحرف الذي وضعناه عنوانا لهذه السطور . « اللا » هي صيغة الاحتجاج . ففي عالم يعطي لنا من الصباح الى المساء اكثر من مناسبة للاحتجاج ، يصبح من حقنا ان نبحت عن طبيعة هذه الكلمة .

قد يبدو لاول وهلة انه ليس هناك ما هو ايسر ولا اعم من قول « لا » . انها تكاد تتردد على اللسان في كل ما نقول وما لا نقول، حتى يخيل اليها انها فارغة من كل مضمون . انها تستطيع ان تخالف كل شيء وتوافق على كل شيء ، وتستطيع بنفس القوة ان تنفي وتثبت ، وتعارض وتؤكد .

وقد يبدو انها اكثر كلمات اللفة بعدا عن الاستقلال بنفسها. فهي تفترض سؤالاً يسبقها ، بل هي جواب انفي على هذا السؤال . فالذي يسأل يريد ان يعرف . وحين نجيب على سؤاله « بلا » فاننا نخشى معرفته الباطلة في مهدها ، ونمهد بالانفي لمعرفة صحيحة او ننقذتها انها صحيحة . وقد يبدو انه ليس هناك ما هو اخطر من قول « لا » . فاذا كانت اللا هي صيغة الاحتجاج ، فقد تكون كذلك هي صيغة الابهزام . فمن يصبر عليها في كل ما يقول او يفعل ، يصبر على رفض كل شيء . ومن يرفض كل شيء يهرب من كل شيء . ويكون الموقف المنطقي الوحيد الذي بقي له هو الهروب من الحياة كلها . . ذلك لانه لا يرفض حينئذ نظاما بعينه ، بل يرفض كل نظام ، ولا ينفي موقفا بذاته ، بل ينفي كل موقف . وهذا الرفض العنيد ، هذا النفي المتصل الذي لا يؤدي الى تأييد شيء او الموافقة على شيء ، هو الفوضى بعينها . وما اسهل ان يقول الانسان لا . ولكن ما اضعفها ان لم تحاول ان تثبت وراءها حقيقتة ، او تؤكد قيمة ، او تدافع عن « نعم » . .

وما اخطر ان يقول الانسان « لا » ، خاصة اذا وجد المجتمع الذي يحرم هذه « اللا » ، لا بل يقمها ويوقع عليها العقاب الشديد . ولكن ما اشبهها بالصدى الصانع في الصحراء ، اذا كانت تعبر عن تمسرد يكتفي بالانفي دون ان يحاول الانبات ، ويقنع بالاعتراض على الباطل دون ان ينادي بتأكيد الحق .

لكن هل يقف المفكر في « اللا » عند الصعوبات الخارجية التي تصادفه ، وهي صعوبات تدخل في مجال السياسة ، والاجتماع ، والقانون ؟ ان المفكر الحقيقي يهتم قبل كل شيء بالماهية والطبيعة والجوهر . فهل يقربه من حقيقة « اللا » ان نصفها بانها صيغة الاحتجاج ، ام تراها تبعده عنها ؟ اليس في لفظ « لا » نفسه تحديد

حكم ، ولكن الحقيقة مختلطة بالباطل ، والوجود ممتزج باللاوجود وأنا لا أستطيع أن أميز أحدهما عن الآخر . أريد أن أقول للطريق الخاطيء « لا » ، فلا أستطيع أن أستعين بطريق بارمينيدز الوحيد ، لأنه لا يؤدي إلا الى « نعم » مؤكدة . انه لا يقول لا فحسب ، بل ينفي اللاوجود نفسه ، ومع كل نعم كاملة فيه . قائل لا يقول للاوجود « لا » ، وهو مضطر أن يقولها لتسمعها العامة « ذات الرؤوس المزوجة » لأنها تتعلق باللاوجود ، وتظلل في ليل الظن والجهل ، لا تملك شجاعة العارفين ، ولا ترفها « بنات الشمس » الى أعلى (قارن الشفرة الاولى من شذراته الباقية) . غير انه في الحقيقة ليس في حاجة الى ان يقول « لا » للاوجود . ذلك لان هذا اللاوجود لا وجود له عند بارمينيدز . انه يعيش على الدوام في مسالة متألقة ، في مملكة النهار والضوء الساطع ، ومع ذلك فان نهاره لا يكشف الليل ، وعلمه لا يفسر لنا وجود الجهل . واذا سألناه لم كان الجهلاء جهلاء ولماذا لا يعرفون الوجود كما يعرفه سواهم ، وهل نسيهم هذا الوجود ام نسوه ، اجابنا انهم يتعلقون باللاوجود . ولانهم يتعلقون باللاوجود فهم دائما ما يقولون « لا » ، وهم يقولون « لا » ، لانهم خاضعون لسلطان الحواس ، يرون الظاهر حيث يكون الباطن ، والكثرة حيث تكون الوحدة . انهم خائفون على الدوام ، لان « اللاوجود » يهددهم ، وتهديده يحلمهم على قول « لا » ، ويعجزهم عن قول « نعم » للوجود الواحد الحقيقي .

اذا كان هذا هو حال من يقول « لا » فان قائل « نعم » عند بارمينيدز ليس أفضل منه حالا . ذلك لان الانسان لا يصل الى النعم الحقيقية الا بعد أن يقول لا مرات ومرات ، ولا يسير على الطريق الحق حتى يعدل عن طريق الخطا التي لا حصر لها . ان قائل نعم عنده أشبه بمن اكتشف الطريق . ولكن ما كان أحوالنا الى أن يشرح لنا المشقة التي عاناها حتى وصل الى هذا الكشف ! وليس أحب الى الانسان من قول نعم ، خصوصا اذا كان يقولها للحقيقة المضيئة كالنور ، على أن تأتي هذه « النعم » في نهاية الطريق لا في بدايته ، لا بل أن تكون على الدوام كاملة في كل « لا » يقولها ، وكل احتجاج يصرخ به .

كان اذن على الفيلسوف الوقور بارمينيدز أن يميز بين نعم كاملة في لا ، بفضلها تستطيع هذه أن تصمد لتهديد اللاوجود ، وبين نعم أخرى « لا تبلغها رغبة » و « لا تلطخها لا » كما يقول نيتشه . ذلك لانني لا أستطيع أن استمع الى « النعم » الاولى الا من خلال « لا » ، ولا أن أجرب الوجود حتى أقول « لا » لكل ما ليس بوجود ، ولا أن أوافق حتى أحتج هذا الاحتجاج الانطولوجي (الوجودي) . ولا أستطيع كذلك أن أصل الى النعم الاخرى ، حتى اتخلي عن كل شيء ، وأصبح ببصري عن كل ما يتهدده اللاوجود - ومنه نفسي - بالخراب ، لا بل اتخلي عن اللغة التي تحتل الخطا حتى أصل الى الوجود الذي تعبر عنه لغة البشر . هنالك أصل الى تلك النعم ، أو تلك النعمة الغريبة اليائسة التي سماها نيتشه بالكوكب الأعلى ، والوصية الفريسة والنعم الابدية للوجود . وهنالك لا يملك الانسان الا أن يقول تلك النعم المقدسة ، و « يحيي ظهر الارض والبشر العظيم » .

لولا هذه النعم الكاملة كمون البذرة في اللا ، لكان شك الشكاك ، وبأس اليائسين في معنى الحياة عامل تدمر لا يرحم . والا فمن أين جاء ديكارت اليقين ، وقد راح يشك في كل شيء ؟ ألم تكن هناك « نعم » وراء ال « لا » المحتاجة ، جعلته مطمئن الى انه مهما شك في كل شيء حتى في شكه ، فسوف تبقى حقيقة التفكير التي تسلمه الى طمأنينة الوجود ؟ ومن أين جاءت « كامو » شجاعته ، وقد راح يفتح ويشمر ويصرخ بأن الوجود لا معنى له ، لو لم تكن هناك « نعم » وراء هذه ال « لا » المعبدة ، تؤكد له ان هناك معنى في احتجاجه على اللامعنى ، وان الحياة تستحق أن نحياها لا بل يجب أن نحيا كل لحظة فيها ولو كانت مجردة عن المعنى ، بل ربما لهذا

السبب نفسه ؟! وهل كان بارمينيدز ليحتج على اللاوجود ويرفضه لو لم يكن يريد تأكيد الوجود الثابت ، والجوهر الخالد الباقي ؟! هناك اذن قوة تتجلى في قول « لا » ، وتتكشف في كل احتجاج على الخطا والباطل واللاوجود ، قوة تحمي الشاك من الهلاك تحت سنابك الشك ، وتقي اليائس من الفرور كما تقيه من الاستسلام وتدمير النفس . لنسم هذه القوة الوجود أو العقل أو حكمة الحياة أو نعمة السماء ، فورا اختلاف الاسماء اتفاق على « النعم » الكاملة كمون البذرة الحية في « اللا » .



وليس أمر « اللا » مقصورا على الفلاسفة والمفكرين . فالانبياء أيضا قد يحملون أمانتها ، فيهربون من عبثها ، ويفرون من وجه الرب الفاضب ، ناسين انه لا يندر الا لبشر ، ولا يتوعد الا ليعد . « صار قول الرب - كما يقول الاصحاح الاول من سفر يونان (يونس) - الى يونان بن امثاي قائلا : قم اذهب الى نينوي المدينة العظيمة وناد عليها لانه قد صعد شرهم امامي » .

كان على يونس النبي ان يذهب الى أهل نينوي « الذين لا يعرفون بينهم من شمالهم » ليبلغهم بأمر « اللا » الالهية ، وليحمل اليهم مع نذير السماء البشير بكلمة الله . ولكنه على ما تصف القصة المشهورة هرب من وجه الرب ، ونزل الى يافا ليركب سفينة ذاهبة الى ترشيش . ويرسل الرب ريحا شديدة الى البحر تهز السفينة حتى تكاد تنكسر . ويفزع الملاحون كل الى الهه يستصرخه ، بينما يفظ يونس في نومه في جوف السفينة . ويساله الرجال عن أمره فيقول انه خائف من الرب الذي صنع البر والبحر . ويسألهم أن يطرحوه في البحر فيسكن البحر عنهم ، لانه بسببه كان هذا النوء العظيم عليهم . واعد الرب حوتا عظيما ليتلع يونس ، فكان في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال . وظل يونس يدعو ربه ويعترف بذنبه ويتوب اليه حتى أمر الحوت فقتل به الى البر . وذهب يونس الى نينوي مرة ثانية لينادي لها الناداة التي كلمه الرب بها . وهناك انذر يونس وتوعد ، قال لاهل نينوي ان المدينة العظيمة ستقلب بهم بعد أربعين يوما . انذر ولم يبشر ، توعد ولم يعد ، صرخ « باللا » ولم يظن الى « النعم » التي يمكن أن تتفتح عنها . وآمن أهل نينوي بما قال ، صاموا وصلوا ولبسوا من الملك الى الراعي مسوح الرهبان . نعموا الى الرب ورجع كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي فسي أيديهم . ثم الرب أيضا عن الشر السذي تكلم على لسان يونس أن يصنعه بهم فلم يصنعه .

لكن يونس الذي توقع أن ينفذ الرب وعيده ، فيحول المدينة الى انقاض والاحياء الى جثث ، قد « افتاظ بالصواب » ، ولم يعرف ان الاله الفاضب هو نفسه الاله الرحيم ، وان كلمته التي تقول « لا » تقول معها « نعم » في نفس واحد . واستولى عليه اليأس فدعا ربه ان يأخذ نفسه منه « لان موتي خير من حياتي » ويخرج من المدينة ويجلس في الظل ليرى ماذا حدث للمدينة . وبعد الرب الاله يقطينة تظله وتخلصه من غمه . ويفرح يونس فرحا عظيما . ولكن لا يلبث الفجر أن يطلع حتى تيبس اليقطينة وتهب ريح شرقية حارة فتضرب الشمس على رأسه فتذبل . ويحزن يونس على الشجرة ، وهو الذي بخل بحزنه على المدينة العظيمة . ويعرف انه شك في رحمة الله ، وجلس بعيدا عن المدينة ينتظر أن يراها تنهار امام عينيه . ويعسود بطلب الموت لنفسه ويقول موتي خير من حياتي .

انتهى يونس الى اليأس لانه كلف بأمانة قول « لا » ففر من تبعثها « بلا » الهروب . صحيح انه يتلقى الدروس من الرب ويتعلم حكمته في جوف الحوت ، فيخرج منه ليبلغها لاهل المدينة العظيمة - ولكن مأساته انه وقف موقف من يقول أما « اللا » أو « النعم » ، ولم يعرف انهما يمكن أن يجتمعا في وحدة واحدة . وراح ينتظر انهيار المدينة التي ابلغها غضب الرب ، دون ان يعرف ان الرب نفسه رؤوف حكيم . لقد وقف عند منطلق أهل نينوي الذين لا يعرفون بينهم

من شمالهم ، ولم يستطع أن يسمو الى رأي الانبياء الذين يعرفون ان هناك طريقا ثالثا غير طريق النعم أو اللأ ، طريقا يجمع بينهما في وحدة الوجود ونعمته وقوته . وهكذا ظل يونس حائرا بين اخلاصه للكلمة الرب وخيائته لها . فقول « لا » أمر عسير دائما ، وقائسل « لا » ينبغي أن يدخل في حسابانه الأحوال التي يمكن أن يتعرض لها ، والشجاعة التي تلزمه بها . وقد كان عسيرا على يونس أن يسمع اهل المدينة هذه اللأ الالهية بغير أن يفسد علاقته بالله ويخون نفسه ويخون المدينة العظيمة . وترنح يونس بين « لا » الهروب و « لا » الدمار ، حتى علمه الرب درساً يمكننا أن نتعلم منه !

من الصعب أن يقول الانسان « لا » .

ولكن من أين عرفنا هذا ، ومن الذي عرفنا به ؟

نحن نعلم ان هناك نوعا من الناس يعجزه أن يقول « لا » . فهو يخشى ان قالها أن يعزل عن الناس أو يعزله الناس عنهم . وهو يخاف أن يؤدي أحدا كما يخاف أن يؤديه أحد . وهو يظن اذا سكت عن قول « لا » ، أنه سيرضى عن كل شيء وعسن كل انسان . ولكنه لا يستطيع أن يرضى عن كل شيء ولا عن كل انسان . فالقوى التي يخشى ان هو عارضها أن تطرده وتتعبه ، تتصارع فيما بينها . وهو ان سكت أو احتج محكوم عليه بالوقوع تحت رحمتها ، والتمزق بسببها . هل يستطيع أن يخلص نفسه منها اذا واجهها بقول « لا » ؟ هل يضمن أن ينجو من شرها جميعا فلا تناله احداها ؟ انه يحاول بالصمت أن ينجو من هذه القوى جميعا ، ان لا يبدي مقاومة ، ان يصيح « لا أحد » . ولكنه لا يستطيع أن يكون « لا أحد » . ومحاولته أن يكونه تفضحه . انه في كل لحظة معرض لالوان من الجزء ، وهو لا يستطيع أن يكتفي بموقف العذب والضحية ، بل لا بد له ان يقوم بدور المنفذ والجلاد ، مهما حاول أن يفضل يديه ويعلم برأته . ومن ثم يحاول أن يسلم نفسه لاحدى هذه القوى ، غير انها لا تحميه ، بل تهدد بابتلاعه ، وفي طريقه الى الهروب من احداها يقع في أسر الأخرى . ويبدا في القفز من احداها الى الأخرى . لكنه لا يحتاج الا لقوة واحدة تطيه القدرة على القفز . ويحاول أن يتعالى عليها جميعا ، أن يقول للكلمة « لا » . غير أن التعالي لا ينجح الا في الظاهر . فهو ما يزال في حاجة الى قوة تؤكد له انه متعال ومرتفع . وتتنافس القوى عليه ، ويضطر أن يدافع عن ذاته التي يتهددها الضياع فيقول لهذه القوى « لا » ، ويقول لنفسه « لا » . ولكنه يجد انه لا يستطيع أن يقول لها جميعا « لا » ، فيوافق على احداها أو بعضها ، ويوحد بين ذاته وبينها . ويكتشف في التوحيد تهديدا جديدا بفقدان الذات . ويرى نفسه وحيدا لا يجد شيئا يتمسك به ، فيبدأ في البحث عما هرب منه ، ويفزع الى المحدود هربا من غير المحدود ، ويتلمس الشكل نجاة مما لا شكل له ، ويدخل مختارا في أسر الجبر والالزام ليخلص من حربة الفراغ . ويسأل نفسه : هل أستطيع أن احتفظ بذاتي اذا قبلت كل القوى والانظمة ووحسدت نفسي بها ؟ واذا رفضتها جميعا فهل أحافظ عليها ؟ وبعد ان كانت المسألة في أول الامر مسألة كيف مع القوى الخارجية والداخلية ، تصبح المشكلة عنده هي فقدان الذات أو الاحتفاظ بها . ويعرف الان ان من الصعب على الانسان أن يقول « لا » وأصعب عليه ألا يقولها . فهو يقولها ليجتج على اضعاء ذاته (وماذا يكون بدونها ؟) فاذا قالها عادت فهددت هذه الذات بالضياع . وهو ان امتنع عن قولها وحاول ان يعزي نفسه بالارتفاع فوق القوى والانظمة والأشكال جميعا ، عاجله الخوف والقلق من ان ذاته لم تتحد مع شيء ولا ارتبطت بشيء ، وهو ابشع الوان الخوف والقلق في عصرنا الذي نعيش فيه .

كيف ينجو من هذا القلق من يبحث عن النجاة ؟ بالكلام ؟ ولكن الكلام يبدو سخفا وعجزا ، حيث يصيح الكلام الحقيقي والحسوار

الحقيقي مستحيلا . بالصمت ؟ ولكن هل يخلص الصمت من الخوف ، وقد تسبب الخوف فيه ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يبقى بغير لفة ، فحتى الصمت نفسه نوع من الكلام مع الذات ، حين تتكسر جسور الكلام مع الآخرين . لا بد إذن أن يبحث الانسان عن لفة . هنا يختلف الناس بعضهم عن بعض . فالبعض يسكت ، وهم ملايين في عالمنا الحديث ، وفي صمتهم أو لنقل في عجزهم عن الكلام نوع من الاحتجاج الأخرس ، نوع من قول « لا » . والبعض الآخر يهرب السى الشعارات والحكم والكلمات المحفوظة ، لمجزه عن الكلام الحق ، فلا يلبث أن يفزع من هذه الشعارات والحكم والكلمات المحفوظة . وفريق ثالث يبحث في الفن والعلم عن لفة جديدة ، لا بل يحاول ان يوجدتها في كل عمل جديد . ولفته هنا نوع من قول « لا » ، أو من الاحتجاج على لفة لم تعد تقول شيئا .

قول « لا » أمر عسير . لان القول نفسه أصبح عسيرا ، واللفة حملا ثقيلاً مفروضا من أعلى . وقول « لا » أمر صعب ، لانه احتجاج على ضياع اللفة الحق ، لفة الحسوار بين البشر ، لفة السؤال والجواب ، والرأي والاعتراض عليه . قول « لا » في وسط الصمت السائد كاحداث ثقب في سفينته . انه نوع من الاحتجاج يهدد صاحبه بالخرس والصمت . والخوف من الصمت ، حتى ولو هرب الانسان اليه ، من أبشع أنواع الخوف في عصرنا الذي نعيش فيه . خوف من ضياع الذات ، وخوف من فقدان اللفة ، وقلق من ان يصبح الانسان شيئا من الأشياء ، او يصبح أخرس يخدع نفسه بالحياة في جنة الصمت أو يتحالي على الحياة في جحيبه . كلاهما نوع من تدمير الذات . وكلاهما من أبشع الوان الخوف في عصرنا الذي نعيش فيه .

قد يظهر هذا التدمير ملفتا للانظار في الانتحار ، او الجنون أو الفزع الى حياة اللذة المسعورة أو حياة الغزلة والرهينة المفروضة . ولكنها جميعا الوان من تدمير الذات ، تحاول كلها أن تهرب من خيبة الامل في نفسها وفي العالم لتقع من جديد في خيبة الامل . كيف نقاوم هذا التدمير الذي يتفشى كالوباء في كل مكان ؟ كيف نستطيع أن نقول « لا » دون أن نفقد ذاتنا أو نضطر الى الصمت الأخرس ؟ كيف نحافظ على هذه القوة الاصيلية في الانسان ، قوة الاحتجاج وقول « لا » ؟ كيف نصر على المقاومة ، وسط أمواج الدمار التي تلتف علينا ، بغير ان نخاف من الخوف ، وبغير أن نخدع أنفسنا ببطولة زائفة أو نعزبها بالانزعال التعميس ؟ في أمواج الدمار نفسها ينبغي علينا أن نبحث عن قارب النجاة . وسط القوى المتصارعة يجب أن نقاوم . بين أصوات الزيف وصيحات المخادعين لا بد أن نصرخ قائلين : « لا » . هنا أيضا يجب أن نبحث عن كل من يصرخ مثلنا ويقول « لا » . سنجد بينهم كثيرين من المزييفين والدجالين ومن لا يعلنون السخط الا لكي يتعرفوا على الساخطين . وليست الصعوبة في أن تجد المحتجين الحقيقيين بدلا من المحتجين المتزييفين ، بل هي في اكتشاف الحقيقيين بين صفوف المتزييفين . وان لم نفعل كذلك فنحن نخون أنفسنا ، ونخون الوجود الحق الذي نقول باسمه « لا » . قول « لا » أمر صعب . لانه احتجاج على تدمير ذات الانسان ، ولانه يهدد قائله بالدمار . والخوف من الدمار - حتى ولو هرب الانسان منه بتدمير نفسه بالموت أو الجنون أو الصمت - من أبشع الوان الخوف في عصرنا الذي نعيش فيه .

لنضرب مثلي على الوقوف في وجه الموت ، وعلى مقاومة العنف والوحشية .

أما أحدهما فتعلمه من أبي الشعراء هوميروس ، وأما الآخر فمن شاعر حديث هو برتولد برخت . فالقارئ يذكر من قراءته لبلاديسة كيف مكر أوديسوس بالوحش الخرافي الرهيب (الكليوب) وكيف استطاع أن يفتق عينه الواحدة ، بعد ان ابتلع رفاقه الملاحين واحدا بعد الآخر امام عينيه .

في الانشودة التاسعة من الاوديسة يحدثنا البطل المغامر اوديسيوس كيف ابحر مع رفاقه الاثني عشرة الى بلد الكيكلوب ، هؤلاء العمالقة الجبارين ، الذين لا يعرفون شريعة او قانونا ، ولا يزرعون بأيديهم ولا يحرقون ، بل ينمو كل شيء في ارضهم ، اضدادا على الالهة الخالدين. اقترب هو ورفاقه من الجزيرة التي يسكنها العمالقة ، وراوا من بعيد كهفا يشرف على البحر ، نظله اشجار افار . « هناك اعتاد هذا العملاق الوحشي أن يعصي الليل ويرعى الحيوانات بعيدا لا يختلط بغيره ، بل يعيش في عزله ويتفكر في ما يخالف القانون . فلقد خلق كما تخلق الاعجوبة الخارقة . لا يشبه رجلا يأكل الخبز ، بل قمة صخرية كثيرة الشجر على جبل مرتفع ، تبدو واضحة للعين ، بعيدة عن غيرها من القمم » .

حمل اوديسيوس معه قربة نبيذ احمر ، وسلعة مملوءة بالطعام ، استعدادا لمواجهة رجل شديد البأس ، لا يعرف شريعة ولا يخضع لقانون . ودخل هو ورفاقه الى الكهف ، فاكلوا واشعلوا نارا وقدموا ضحية ، وجلسوا ينتظرونه . ودخل العملاق أخيراً ، يحمل حملاً ثقيلاً من الخشب ليسوي عشاءه ، ودفع ماشيته في الكهف ، ثم رفع صخرة هائلة سد بها الباب . وبعد أن حلب الماشية وفرغ من شؤونه، أشعل نارا . ولح الغرباء على ضوئها فسألهم ، في صوت « نكر له القلب الحبيب » : « أيها الغرباء ، من أنتم ؟ ومن أين أتيتم سيرا على الدروب الرطبة ؟ هل جئتم في مهمة ؟ أم تجوبون البحار المالحنة كالقرصان الذين يتجولون هنا وهناك ويخاطرون بحياتهم حين يجلبون الاذى على غيرهم ؟ » . ويجيبه اوديسيوس فيروي عليه أثناء رحلته من طروادة وكيف ضل الطريق الى الوطن ، ويطلب منه أن يحميه ورفاقه وأن يخشى الالهة فيكرمهم . لكن العملاق يسخر من سذاجته ، اذ كيف يدعوه الى خشية الالهة والعمالقة لا يكترون بزئوس ولا بغيره ؟ وقفز العملاق ومد يديه الى الرفاق فتناول اثنين منهم قذف بهما على الارض كالكلاب الصغيرة ، ثم أعدهما لوجبة العشاء واكلهما - كالاسد الذي يتغذى في الجبال - فلم يبق منهما لحما ولا عظما . وبعد أن فرغ من الطعام وشرب اللبن تمدد على الارض ونام .

خطن لاوديسيوس أن يطعنه في صدره ، ولكنه تذكر انه لن يستطيع هو ورفاقه وحدهم أن يزحزحوا الصخرة الهائلة التي سد بهما الكيكلوب باب الكهف . ولم يبق امامهم الا ان ينظروا الفجر الالهى وهم ينتهدون .

ولم تكذ تشرق ايوس ذات الاصابع الوردية ، حتى أشعل نارا وبدأ يحلب ماشيته . ثم أمسك بانيثين من الرفاق وفعل بهما ما فعله بصاحبهما ! وراح اوديسيوس يفكر في وسيلة تكتب المجد لرايسته اينا وتجعل الكيكلوب يكفر عن ذنوبه . ورأى عصا خشنة تركها العملاق وراءه ، خضراء من خشب الزيتون ، قدرها هو ورفاقه في ارتفاع سارية سفينة سوداء ذات عشرين مجدافا ، عريضة تحمل البضائع وتعبر الاعماق العظيمة . وأمر اوديسيوس رفاقه أن يشذبوها ثم سن طرفها الاعلى ووضعها في النار حتى حميت ، ثم أخفاها تحت أكوام التبن . وحين عاد العملاق في المساء وفعل ما فعله من قبل ، تقدم منه اوديسيوس وفي يده وعاء مملوء بالنبيذ الاسود وطلب منه أن يشربه . وافرغ الوحش الشراب العذب في جوفه ، وطلب ان يسقيه مرة اخرى وان يقول له اسمه على الفور ، حتى يقدم له هدية تفرح بها نفسه . وبعد أن شرب ثلاث مرات ، وبدأت الحمر تعبت برأسه ، قال له اوديسيوس : « ايها الكيكلوب ! نسائتي عسن اسمي المشهور ، حسنا ! ساقله لك ! أما أنت فاعطني هدية الضيافة كما وعدتني ! اسمي هو « لا أحد » . وأبي وأمي وكل رفاقي يدعونني لا أحد ! » ووعده الكيكلوب ان يقدم له الهدية . اما هذه الهدية فهي ان يكون اخر من ياكلهم من الرفاق !

وقهر النوم ذلك القهار فتمدد على الارض فاقد الوعي ، وراح يلفظ النبيذ ولحم البشر من فمه . وأخرج اوديسيوس الساري الجبار من تحت الرماد فحماءه في النار حتى اصبح شواظا ملتهبا . واخذ يسجع رفاقه حتى حملوه ، واوديسيوس متعلق بظرفه ، وراحوا

يغزونه في عين الكيكلوب التي اندفع منها الدم الساخن ، وأزت كما تنز فاس ملتهبة يضعها الحداد في الماء البارد . زعق الوحش وزار ، واهمز الصخر لصوته ، وراح ينادي على زملائه الساكنين فسي الكهف المجاورة . فتجمعوا على باب الكهف واخذوا يسألونه ان كان أحد من الفانيين قد اغتصب خرافه ، اذ لا يصدق ان يكون أحد منهم قد اعتدى عليه بالقوة او بالخديعة . ورد عليهم ذو الاسماء المشهورة : « يا أصدفاني ! لا أحد هو الذي اعتدى علي بالحيلة لا بالقوة ! » فأجابوه : ان كان لا أحد قد اعتدى عليك وكنت وحدك ، فان مرضا أصابك به زيوس لا سيبل الى الشفاء منه . صل اذن لالهك بوزيدون (انه البحار) .

هكذا تكلموا ثم انصرفوا الى حالهم . أما اوديسيوس فقد ضحك « قلبه الحبيب » من اسمه السدي خدعهم ، ومن الخطر السدي لا يلام !

جلس انكليوب على باب الكهف . وقدر اوديسيوس في حيلة اخرى تتجيه ورفاقه من الموت ، فربط كل ثلاثة من الخراف السمينه باكياس تعود الوحش أن ينام عليها ، كما ربط رجلا تحت كل واحد يوسطها ، ودفع نفسه في صوف جدي ونير . وهكذا اخرج الكيكلوب الاغنام لترعى فالت المغامر الماكر من بطش ذلك انجبار ! واستنطاق الضعيف اعجاز ان يصيب العملاق « ذا الاسماء المشهورة » بالعمى بعد ان فهره بالخمر والمكر !



هناك ابطال كثيرون علموا الانسان كيف يقتل وكيف يموت . اما اوديسيوس فهو يعلمه كيف يواجه خطر الموت ، فبعلت منه فسي كل مرة ويبقى حيا !

لقد راينا كيف مكر بالوحش ذي الاسماء المشهورة . فهو يتكر اسمه فينجو من بطش الوحوش الاخرى : « ان لا أحد هو الذي اعتدى علي بالحيلة لا بالقوة » . وهو يتعلم بطن ايجدي السمين فلا تصل اليه يد العملاق ، ويفعل كل ما يستطيع لكي يكون « لا أحد » . غير انه لا يظل كذلك ، ولا يختمل ان يعمى مجهول الاسم . فحيلته الكبرى هي انكار نفسه للإبقاء على نفسه . وليس من قبيل الصدفة ان يظهر اوديسيوس مجهول الاسم امام الوحش ذي الاسماء المشهورة ، فلعنه رأى ان انكار النفس هو اوفر طريق الى الشهرة . وان التخلي عن العادات هو اضمن وسيلة للمحافظة عليها .

عرف اوديسيوس اذن كيف يحافظ على ذاته امام الموت . لم يعص على الوحوش الهائلة ، بل فوت عليها فرصة القضاء عليه ، ولم يبطل نايبرها وسحرها ، بل عرف كيف ينجو منها . ولم يدخل معها في صراع ولا صدام حقيقي ، كما فعل هرقل مع قوى الشر في مقامرته المشهورة ، بل اكتشف نقط الضعف في قوتها الهائلة ، وجانب القوة في ضعفه الانساني . انه لا يستسلم أبداً للقوة تريد أن نعوه أو نستله . فالجزر المسحورة التي تعده بالسعادة عن طريق النسيان ، لا تستطيع أن تقريه بالبقاء . والساحرتان القديرتان (كاليبسو وكيركه) تفعلان كل ما في قدرتهما لاقتناعه بالزواج منهما فلا تستطيعان أن « تحركا الشجاعة في صدره » على الارتباط بهما . ذلك ان الزمن الذي لا يتوقف ينجيه من العمالقة والوحوش . فهو المسافر السدي لا يستقر في مكان (سلف السندباد !) يملأ الشوق صدره الى وطنه ايثاكا (خشنة هي ايثاكا ، ولكنها طيبة ، وصالحة لاطعام الرجال) وتمر عليه التجارب المرة والعذبة فلا تنسيه انه ليس هناك ما هو أعذب من الوطن والابوين . انه المسافر الباقي ، المحافظ على ذاتيته دائما . في بعض الاحيان يضطره الامر الى تقديم الدليل ، حين تنكسر به السفينة على الشواطئ الغريبة او يتخفى فسي ملابس الشحاذين . أو يعود الى بيته . ولكن كيف يتم له ذلك ؟ بالتذكر . فالتذكر هو الخيط الذي يمسك به على محطات رحلته ، والتذكر هو الذي يحفظه من أن ينسى نفسه او ينسى . وحين تنقلب عليه آلام التذكر تظهر حقيقته . فهدهد واحد لا يقهر ، وهو الرجوع الى وجوده القديم ، والعودة الى بيته ووطنه . وحين يعود الى هذا الوطن ، ويدخل بيته

كما غادره شابا لم تغيره السنون ، يبدو كأن الزمن الذي لم يكف عن الجريان قد توقف ، وان شخصيته التي تهدتها أهوال الرحلة لسم تتغير ولم تصب بسوء . لقد كانت كالفرد المعلق فوق رأسه على طول الطريق . واذا كانت النبوة قد أخبرته من قبل انه سيتمذب وسيعود الى وطنه ، فقد ظلت هذه النبوة كالمستقبل الذي يتذكره قبل أن يحدث ، لا الماضي الذي يستحضره بعد أن يفوت . وظل هو أوديسيوس الماكر الذي ينتصر على الخطر قبل أن يقع له ، كانه لا يتعلم ولا ينسى . ومع ذلك فالمر له حدود ، فهو مهما بالغ فيه لا يستطيع أن ينسى ولده ولا أن يضحي باسمه . وهو مهما ادعى الجنون أو أنكر الاسم فلا يلبث أن يفصح حرصه على المجد ، كما يفصح حرصه على الابن ، وكلاهما ضمان لتخليد الذات عبر الزمن الدوار .

ونهاية أوديسيوس نفسها ، على اختلاف رواياتها ، تؤكد ذاتيته ولا تمحوها . فسواء أكان موته على يد ولده نيجونوس من الساحرة كيركه ، أو على يد ولده تليماخوس من زوجته بينيلوبه ، اللذين قتلاه دون أن يعرفاه ، فإن موته لا يعني القضاء على شخصيته ، على الرغم من محاولته أن ينكر نفسه ويبدو كأنه « لا أحد » . ذلك ان الولدين وأن كتب على يديهما هلاك الاب ، يخلان محله ويقيان على اسمه من بعده ، وذلك بأن يتزوج تليماخوس من كيركه وتليجونوس من بينيلوبه . وهكذا يمتد ذكر أوديسيوس امتداده الطبيعي عن طريق الابن ، وامتداده المعنوي عن طريق المجد والشهرة ، لكي يبقى في ذاكرة الزمن رمزا للبطل الذي حاول أن ينكر نفسه فلم يستطع أن يكون « لا أحد » !



وتقابلنا شخصية أوديسيوس في العصر الحديث عند الشاعر برتولت برخت في أقاصيصه « حكايات السيد كوينر » . هنا نجد السيد « ل » (وهو اختصار لاسمه كوينر) الذي يصر على تسمية نفسه « لا أحد » ، انه يحاول أن يجعل عدم الاكترات مبدأ حياته ، فتكشف حياته وأقواله عن أكثراته بكل شيء . فهو يأخذ على سرفاط أن منهجه هو عدم الاكترات (لو انه درس شيئا ، لعرف شيئا) ، وهو يقف في صف العدالة (فيسكنه يجب أن يحتوي على أبواب كثيرة للخروج) وهو يؤثر الليل على كل الحيوانات ، فالليل يجمع بين المكر والقوة ، ويستطيع أن يكون حزينا وغضوبيا ، وهو لا يؤكل ويتقن العمل ، ولا يلفت الانتظار بلونه ، ولكن بضامته . وهو اذا أحس باقتراب نهايته ذهب الى الغابة فمات وحيدا وفي صمت .

ان أوصاف السيد كوينر للحيوان الاثير لذيته تنطبق على نموذج الانسان عنده . فهو لا يحب أن يلفت الانتظار اليه ، ويبالغ في ذلك الى حد أن يسمي نفسه « لا أحد » ، غير ان هذه التسمية لا تخفيها . فالسيد كوينر ليس « لا أحد » ولا يمكنه ولا يجب لنفسه أن يكون كذلك . فما الذي يدفعه الى هذه التسمية ؟ ان حكاياته صغيرة من حكاياته توضح ذلك . « فقد التقي ذات يوم برجل لم يره منذ زمن طويل . وحياه هذا بقوله : انك لم تتغير أبدا . فردد عليه السيد لـ . قائلا : آه ! وشحب وجهه » .

لا بد ان السيد لـ قد أحس بان أمره افتضح ، والا فلماذا شحب وجهه ؟ هل شعر من تحية صديقه انه يتهمه بأنه وقف في مكانه فلم يتطور ولم يتفصح ولم يتقدم خطوة الى الامام ؟ قد يكون هذا تفسيراً للشهقة التي انطلقت عنه . ولكن لو صح ذلك لتوقفنا ان يحمر وجهه خجلا لا أن يشحب اصفرارا . أم لعله شعر ان الرجل قد كشفه وتبين انه لا يزال كما هو ، واحدا من الملايين بلا صفة تميزه ، و « سيدا » كآلاف غيره كلهم « كافات » ؟ لو كان الامر كذلك لما حق له ان يشحب وجهه ، بل لرضي بذلك وفرح لانه لم يتناقض مع نفسه . لا يبقى إذن سوى أن نقول ان وجهه قد شحب لانه غير راض عن الدور الذي يمثله دون ان يعبر عن حقيقته ، ولان صديقه قد عرف انه ليس ذلك « الا احد » الذي يحاول جاهدا ان يبعثه . فهو قد أنكر ذاتيته ، وراح يحملها كأنها عبء لا يستطيع ان يتخلص منه ، ومع ذلك فقد أكدها بانكاره لها . وهذا هو السلي فصحها فشق وشحب وجهه .

هل يكون « السيد لـ » صورة جديدة من أوديسيوس في كهف الوحش الكثير الاسماء ؟ ان أوديسيوس خائف من أن يكون « لا أحد » . انه لا يمثل دور المنكر لنفسه كما يفعل شبيهه الحديث ، بل يدعيه دفاعا عن اسمه الحقيقي ، وتخليدا له . ذلك هو مصدر خوفه . أما السيد « لـ » فقد تخلى عامدا عن اسمه . ولنا ندري من حكاياته ان كان يحمل اسما سريا كما تحمله الشخصيات الخرافية التي يعيش تحت الارض . فتخليه عن اسمه لا يعني انه تخلى عن ذاته . بل العكس هو الصحيح . لان اسمه الجديد نوع من الافلات من الاسم ، يتيح له في نفس الوقت أن يعرف وأن يتجاهل ما عرف ، او يتجاهل يتجاهله . ولقد افصح أمره لانه نعمد أن يستبعد التسمية فلم يفلح في أن يظل بغير اسم ، وزعم انه « لا أحد » فلم يتنجح في أن يكون « لا أحد » . اراد أن يبعد عن نفسه شبهة المعرفة ، فبين انه عرف الي حد السخط والثورة . وأصبح رمزا لكل من يقف موقف الازل في وجه القسوة والظلم والوحشية ، فيقاومها بمجزه عن المقاومة !

أصف الى هذا كله ان السيد لـ . ليس أي واحد من الناس . انه يلقي المحاضرات ، ويثبت انه نافع (كذلك الفيل حيوان نافع : فهو يؤدي شيئا في سبيل الفلن اذ يقدم سن الفيل !) بل انه يستطيع في بعض الاحيان أن يحتج ، فيعلن في احدى خطبه العامة انه يستنكر العنف والارهاب . هناك يلاحظ ان الحاضرين انسحبوا من محاضراته . ويلتفت السيد « لـ » ليري الارهاب نفسه واقفسا وراة ! فاذا سأل ماذا كان يفعل اجاب بأنه عبر عن سخطه عليه . ويسأله تلاميذه : لم لم يكن له ظهر يحميه او لماذا خلق بغير عمود فقري ؟ فيروي لهم حكاية « السيد اجه »

في زمن اننازية الذي تطلبت فيه القوانين وسادت شريعة الفوضى جاء أحد عملاء هذا « النظام » الى السيد اجه عارضا عليه المسكن والمائل رساله : هل تقبل ان تخدمني ؟ ومضى السيد « اجه » يخبره سبع سنوات بدون أن يقول كلمة واحدة ، وبين العميل من كثرة النوم والاكل واصداق الاوامر حتى مات . وحمل السيد « اجه » جثته الى الخارج ونظف البيت وتنفس الصعداء وقال : « لا » . ثم يعقب السيد « لـ » قائلا : أنا بالذات لا يصح ان يكون لي عمود فقري . اذ يتعين علي أن أعيش أطول مما يعيش الارهاب » .

وهنا نسال : هل كان في استطاعة السيد « اجه » ان يصلح العميل ويرده عن خبسة العنف والارهاب ؟ لا شك انه لم يكن يستطيع . هل كانت مصادفة انه بقي حيا ؟ نعم كانت مصادفة . هل اثر الإحتجاج الصامت اية نيرة؟ وهل فهم احد انه احتجاج؟ نعم . فقد فهمه السيد كوينر . على أي شيء يحتج هذان السيدان إذن ؟ من الواضح ان احتجاجهما البعيد المدى موجه ضد الارهاب ، أما الاحتجاج الظاهر فهو على التسلط في الكلام . هنا يختلفان عن أوديسيوس . فلولا اناشيد هوميروس في ملحمة الشهيرة ليقيني

أوديسيوس « لا احد » مجهولا . أما السيد كوينر فلا يمكنه . في زمن البطش - ان يقضي أو يتكلم أو يعلن شيئا ، حتى ولو كان هذا الشيء هو اسمه . ولذلك فقد أنكر هذا الاسم ، ولولا هذا الإنكار لظل « لا أحد » . وأما السيد « اجه » فلولا الصمت الذي لجأ اليه لبقى هو ايضا « لا أحد » . كلاهما هرب من العدم الى العدم ، من ضياع طبيعي للاسم (أو قل للشخصية والذات في ظل الارهاب) الى ضياع مفروض للاسم . غير ان حيلتهما العاجزة تثبت قوتها ، واستسلامهما الصامت تثبت انه هو السلاح الوحيد للمقاومة . لقد بين كلاهما اننا نعيش في عالم يهدد ذاتية الانسان بالانلاشي . ولذلك فليس عجيبا ان نجد براخت يوصي طوال حياته « بالنتكر » ، ويصف نفسه - لكثرة الاقعة التي ليسها - في نوع من الاعتزاز ببعره فيقبول « ايا كان الذي تبحثون عنه ، فانا لست هو » ، وينصحننا في قصيدة مشهورة فيكرر القول : « أقول لك اخف الانار » . ويصف السندن التي تعيش فيها اليوم بانها كالادغال التي تموت فيها الفيلة . لهذا - التتمة على الصفحة ٥٧ -

في ظل نظام الفوضى التي نسميها بالفاشية والنازية . وإذا كان السيد « ل » والسيد « آه » لا يقولان « لا » واضحة عالية ، بل يعبدان عن نفسيهما شبهة الاحتجاج بكل وسيلة حتى ولو استدعى الأمر أن يتخليا عن أسمائهما ، فإن سكوتهما يظل عالي الصوت ، واستسلامهما يصبح هو السبيل الوحيد للمقاومة ، وامتناعهما عن قول « لا » يظل أقوى أثرا من كل صيحات التمرد والفاضيين . ولا شك أن هذا الاحتجاج الصامت الساهر من كل احتجاج هو في حقيقته أقوى من كل احتجاج ! صحيح أن السيد « ل » والسيد « آه » لم يحسلا مشكلة « اللا آحاد » الكثيرين في هذا العصر ، ولكنهما قد أشارا إليها على أقل تقدير .

* * *

إذا كان في احتجاج أوديسوس و « السيد ل » جانب من السخرية الخفية بالبطش والإدعاء والظلم والترف الذي يرتدي رداء البطولة ، فإن هناك أنواعا أخرى من أسخرية والساحرين نستطيع أن نملا قلوبنا بالبهجة وتضيء عقولنا بالمعرفة . ولسنا في حاجة إلى البحث في الملاحم القديمة ولا التنقيب في آداب الأمم القريبة لنجد آثار هذه السخرية المرحية . فهناك حكاياتهم التي تدور على ألسنة الشعب في الأسواق والطرفات ، وهناك مفاخرهم التي تذكرها في كل مناسبة تدعو إليها . هناك جحا في حياتنا وهناك الأوبلن شبيجل ، أو جحا الألمان ، ويكاد يكون لكل شعب جحا الطيب الضاحك الزاهد في كل ادعاء أو اصلاح ، ألقادر مع ذلك على تصحيح كل وضع مغلوب أو شاذ . *

ولا يسمح المجال بالإضافة في الحديث عن هذين الاحمقين العاقلين ، ولا يصلح للكلام في فلسفة الضحك والمضحكين ، فذلك شيء يمكن أن يرجع فيه القارئ إلى كتب كثيرة تعالج هذا الموضوع . ولكننا نلاحظ فحسب أن أسلوبهما هو أسلوب الأفراب الذي جعل منه برخت

الدكاترة والمجستير . واشترط « تمل » أن يطرحوا عليه أسئلة يستيفها العقل السليم ، وأن يريحوه من حكمة المدرسين ، وعلوم الوثنيين الاقدمين ، ومشاكل آباء الكنيسة . واجيب إلى طلبه . وفي اليوم المحدد ازدحمت الجامعة بالعلماء والطلبة وجاء تمل ومعه بعض اصحابه المرحين من المتسكمين والصماليك وصفار العمال والتجار ، يحملون في ايديهم عصيا خشنة لمواجهة الظروف ! واستقبله المدير في حفلة ووفار ، واجلسه على منصة وسأله السؤال الاول : كم دلو من الماء في البحر ؟ فأجاب تمل : جفقا جميع الانهار التي تنيض من البرك ، والبحيرات ، وتصب في البحر من جميع الممالك ، واوقفوا المطر ، وعندئذ اتول لكم كم عدد الدلاء . « هلل اصحابه ، وسكت الدكاترة ، وعاد المدير يسأل : « كم يوما مضت منذ ان خلق آدم إلى اليوم ؟ فقال تمل على الفور : سبعة ايام يا اعزائي ، هي التي مضت بالتمام والكمال ، وحين لا يبقى من هذه شيء ، تنبها سبعة أخرى ، وهكذا الامر منذ عهد آدم وسيستمر كذلك إلى الابد . » وضحك الاصحاب ، وتمليل الدكاترة لأن مديرهم لم يفهم كيف يوقع الساخر المكار على الحديد المتهب ! وبلغ المدير فضيه وقال لنفسه : الثالثة ثابتة وسأل : اين هو وسط العالم ؟ وسر الدكاترة للسؤال المكار الدقيق وقالوا في انفسهم : هذا هو الفخ ! فلو قال انه في روما ، حيث يجلس البابا المقدس فسوف يغضب علماء الدنيا ، ولو قال انه في براغ حيث الجامعة العريقة لاغضب علماء الدين . واجاب تمل : ان وسط الدنيا هنا ، في المكان الذي اتف فيه ، وان لم تصدقوا ، فقيسوه ان شئتم . صفق اصحاب تمل ، وذهل العلماء والاساتذة ، وفكر المدير ان يطرح عليه سؤالا في الفلك ، بمس ان حيب ظنه في علوم الطبيعة والرياضة وطبقات الارض فسأله : ما هي المسافة من هنا إلى السماء البعيدة ؟ وفكر تمل قليلا ثم اجاب : « ان سماء ارضنا ، ليست بعيدة ابدا يا سادة يا كرام ، وهذا سألته لكم . اذا أردت الصعود إلى السماء والوصول إلى الملائكة المباركين ، فناد من

←

كله وجدنا الذات المهتدة بالضياع في مركز أعماله الشعرية والمسرحية . ف شخصية جالي جاي في مسرحية « رجل برجل » عنوان الانسان الذي يمكن في العصر الحديث أن يتشكل بالشكل الذي يراد له ، وسامو الطائرة المحطمة في مسرحية « بادن » التعليمية عن التفاهم والقبول يتحتم عليهم التصحيحة بشخصياتهم في سبيل المجموع التاريخي الرهيب . وشن - تي ، انسانة ستشوان الطيبة والشريفة معا ، تصارع فيها شخصية المنحزمة الفقيرة والمستقلة الجشعة ونظ على هذا الصراع بين الفردية والمجموع حتى تصرخ في النهاية : لا بد من ايجاد حل ، والسيد سميت في مشهد المهرج المفرغ في المسرحية التعليمية السابقة يتخلى عن أعضائه شيئا فشيئا ليحس بالسعادة حتى ينتهي به الامر إلى التخلي عن رأسه ، كل هذه الشخصيات لا تحتج بالمعنى المألوف عن الاحتجاج . انها تخفي هذا الاحتجاج فتكون النتيجة أن تظهره ، وتخفق صوته فيرتفع أعلى مما كان ، وتحاول بكل قوتها أن تكرر ذاتها فتؤكدها . وسواء أكان براحت صادقا فيما دعا إليه صراحة في بعض مسرحياته التعليمية من سحق الفرد ليحيى المجموع ، والتصحية بالثائر لتبقي الثورة (نلاحظ بهذه المناسبة انه عدل عن هذا الموقف البشع في مسرحياته المتأخرة وراح يبحث عن حل آخر كما فعل مثلا على لسان تشن - تي في مسرحية انسان ستشوان الطيب) ، فانه يشير إلى نوع من الاحتجاج الاخرس الذي يخشى أن يكون هو الاحتجاج الوحيد الذي بقي للانسان في عصر التجمعات والحاكمات ومسكرات الاعتقال ، والملايين الصامتة المستسلمة

* (تل اوبلن شبيجل هو جحا الألمان ، والشخصية المرحية التي دون عنها الكتاب الشعبي المشهور في عام ١٤٧٨ وطبع لأول مرة باللغة الألمانية الفصحى في شتراسبورج سنة ١٥١٥ ، ثم طبع بعد ذلك وترجم إلى مختلف اللغات وعالجها الكتاب والشعراء إلى عصرنا الحاضر . وقد ولد في عائلة من عائلات الفلاحين في كنتلينجن من اعمبال براونشفيج (في مقاطعة زاكسن) ومات في سنة ١٢٥٠ في قرية مولن جنوبي مدينة لوبيك وما زال قبره هناك وقد كتبت على شاهدته هذه الابيات العجيبة : « هذا الحجر لا يجوز لاحد أن يرفعه ، فهنا يرقد اوبلن شبيجل ، في السنة المسيحية ١٣٥٠ » ، وكانه يزهد في البعث لليوم الاخير ، بينما ينتظره بقية الاموات من عباد الله ! وتل هو مثال لشخصية العيظ الساخر المكار ، الذي راح في نوادره وحكاياته الحقيقية او المنسوبة إليه ينتقم للفلاحين المحترقين من الطبقات البرجوازية ويؤكد انتصار الدهاء الريفي على ذكاء أهل المدن ، والبساطة والتواضع على التصنع والادعاء . ويطول بنا الامر لو حاولنا الاشارة إلى حكاياته ومقالبه ودعاباته التي يسخر فيها من الغباء على اختلاف انواعه ، وكأنه يحمل في نفسه مرآة خفية ينعكس عليها كل ما يعشش في رأس المجتمع من بوم (ومن هنا كان اسمه الذي يمكن أن يفهم فهما حرفيا على انه مرآة اليوم !) . ولكن نادرة واحدة قد تكفي لتبين الصلة التي تجمع بينه بشخصية جحا في أدبنا الشعبي ، كما تجمع بينه بكل اصحاب النوادر والخرافات والحكايات الساخرة على اختلاف البلدان والمضمر ، وتكشف عن هذا الخليط العجيب من الذكاء والفطنة ، والحكمة والحماقة : فقد رحل اوبلن شبيجل مرة إلى براغ ، وكانت المدينة تزدهم بعلماء العصور الوسطى المتأخرة ، فاضطر هو ايضا أن يخلع طاقته المضحكة ليستبدل بها قلنسوة العلماء ورداء الدكاترة الأشد اضحاكا . وراح يطرح في كل مكان أسئلته المحيرة ، كما طفق اصداقاؤه يشيخون عنه انه يملك في اصبغ الصغير من الحكمة أكثر منا عند كلية الفلسفة بأجمعها ! وأرسل إليه مدين الجامعة من يطلب إليه الحضور إليها ليحجب على أسئلة

وسيلة المعرفة التي تكشف عن مجتمع كل ما فيه غريب ومحتاج السى
التفتير . فالمعرفة التي يعلمنا اياها جحا او اولين شبيجل هي بدورها
معرفة كاشفة ، وشخصيتها تشترك مع شخصية الاحق او المغفل في
العصر القديم والوسيط الى يومنا هذا في كشف « العالم المقلوب »
الذي نعيش فيه ، وهم جميعا يسلطون لسانهم السليط او نكتتهم
اللاذعة عليه لانهم يرونه دائما عالما يقف على رأسه .

ولعل في شخصية سقراط الفيلسوف المتمسك المتواضع من ملامح
شخصية الاحمق المشهورين اكثر مما نوحى به كتابات افلاطون او
اكسينوفون التي بقيت لنا عنه . ولعل هذا أيضا هو الذي دفع الكاتب
الساحر ارستوفان الى هجومه اللاذع عليه . فهو في مسرحية
« السحب » يصوره حالما خياليا ويلفه في سلة بين السماء والارض
ويمتله صاحب مذهب صوفي خرافي ويجعله في النهاية يحرق مدرسته
انكفوية . ومع ذلك فقد فشل هجوم ارستوفان . ذلك لان سقراط لم
يكن يحمل مذهباً بقدر ما كان يجسده . وهذا وحده هو الذي جعل
اكثر انفلاسفة المتأخرين والمصور التالية ترفعه الى درجة التقديس .
لقد كان ، كما قال عنه كيركجارد بحق ، سخريه خالصة . ولكن هذه
السخريه لم تكن تشبه في شيء تلك النزعة التهكمية المرة التي يطلق
عليها اسم « الكليية cynicism - zynismus » . في كما يقول عنها
كيركجارد ايضا ، « نفي مطلق لا ممتناه » ، يعبر به صاحبه عن سخط
ابدي . ولكن هذا السخط يختلف عن خيبة الامل . فهو لا يصدر عن
مرارة الفشل ، بل عن العلو فوق الاوضاع القائمة ، بغية نقدها
وتغييرها والكشف عن تناقضاتها .

ومع ذلك فقد يكون من المبالغة أن نقول عن الاولين شبيجل او عن
جحا انها ساخران بهذا المعنى . فكلاهما لا يزعم انه من اصحاب
النفي المطلق اللامتناهي ، ولا انه بطل من أبطال الحرية . انه لا يلتزم
بدعوة او مذهب او اصلاح ، بل يدخل نفسه في مآزق لا يستطيع ان
يخرج منها ، لكي يكشف بذلك عن حرجها او تناقضها . فهي حريسة
الكشف ، والتعريف ، وتسليط الاضواء .



هناك ، ايها المدير المجل ، وسوف اسمك من اسفل . « ولكن المدير لم
يكن مستعداً للتجربة ، فسأله السؤال الميتافيزيقي الاخير : « كم يبلغ
حجم السماء ؟ » فقال تل : « الطول الف متر والعرض الف متر ،
والارتفاع مائة الف ذراع . فان كان بينكم من قاسها خيراً مني فليثبت
انني كذاب ! » والتقى المدير السلاح ، وسبق اولين شبيجل في موكب
المنتصر الى الفندق الذي كان ينزل فيه ، غير انه آثر ان يواصل الرحلة
في نفس الليلة ، خوفاً من انتقام الطلبة الغاضبين .

وحكاية جحا مع الراهبان او العلماء مشهورة تكاد تتشابه في بعض
نفاصيلها مع حكاية اولين شبيجل مع علماء جامعة براغ . فالراهب الاول
يسأل جحا - امام سلطان الروم وكبار علمائها - عن وسط الدنيا فيشير
جحا بعصاه الى حيث وضع حماره رجله اليمنى ويقول : هو في المكان
الذي وضع فيه الحمار رجله اليمنى تماما . فاذا سألوه عن الدليل قال
ان لم تصدقوني فمليكم بالكيل فان بدا لكم ما يخالف قولي من زيادة او
نقصان فكذبوني . ثم قال الراهب الثاني وسأله : كم عدد النجوم ؟
فاجاب جحا على الفور : عدد شعر حماري . فسأله احد الراهبان من
اين عرف ذلك فقال : ان لم تكن تصدق قولسي فمدحها ! فعاد الراهب
يسأل : وهل يعد شعر الحمار ؟ فاجاب جحا : وهل تعد نجوم السماء ؟
وقام الراهب الثالث فسأل : كم شعرة في لحيتي هذه ؟ فلم يتردد جحا
وقال : بقدر ما في ذنب حماري من الشعر . فسأل الراهب كيف يثبت
ذلك فقال : بأن تنزع شعرة من لحيتك وأخرى من ذنب الحمار فان اتفق
المجموعان كان الحق ممي والا فالحق مكم .

ولم يملك الراهبان الا الضحك ، لا من اجوبة جحا فحسب ، بل
كذلك من علمهم الجاهل العميق . .

وقد عرفت الفلسفة اليونانية القديمة شخصية جذابة هي
شخصية الفيلسوف ديوجينيس ، او ديوجينيس الكلب كما اشتهر
اسمه ، ذلك المغفل الحكيم الذي راح في ضوء النهار يتجول في
الاسواق حاملاً مصباحاً في يده ، باحثاً عن انسان . لم يكن ديوجينيس
باطبع يجهل ان الصباح لا ضرورة له في وضوح النهار ، ولا كان غيباً
الى الحد الذي يجعله يبحث عن « انسان » لا وجود له . ولكنه
اتبع اسلوباً في الاغراب يجعله أقرب الى « الاولين شبيجل » او الى
جحا ، وان اختلف عنهما في ملامح كثيرة . فهو لم يكن يدعو السى
حكمة « اللوجوس » التي كانت تلزم الجميع ، ولا كان يخضع للقوانين
اليونانية التي آمن بها سقراط الى اخر لحظة من حياته كما ضحى
من اجلها بهذه الحياة ، ولكنه كان ساخطاً على طريقته . فهو يريد
أن يقول للمدينة اليونانية (البوليس) انه يكشف لها حقيقتها ،
ويقدم لها المرأة التي لا تحب أن ترى وجهها فيها . انه يعيش عيشة
الكلب ، ويسير في الشوارع والاسواق حاملاً مصباحه المشتعل في
يده ، وكأنه يريد أن يقول لاهل المدينة : لست أنا الكلب ، بل أنتم
جميعاً الكلاب ! لا بل انني لا أزعم اني انسان ، وانما أتحت بينكم
عن انسان ، أعرف سلفاً انني لن أجده ! لذلك لم يكن هو الساخر
الحر الذي نعيه ، بل الباحث الذي خاب أمه في عالمه ، فسراح
يبحث عن شيء يعرف مقدماً انه لن يعثر عليه . ان بحثه عن الانسان
ليس بالبحث الحقيقي ، وانما هو أقرب الى محاولة يائسة يقوم بها
رجل لم يجد ما يبحث عنه ولن يجده . ومن ثم قيل عنه بحق انه
الفيلسوف الكلبى ، او المتهمك الهازيء الذي لا يشارك مشاركة حقيقية
في الفعل الذي يقوم به ، ولا يتوقع أن يصل من ورائه الى نتيجة ،
بل يؤمن ايماناً مسبقاً بأنه جهد عقيم لا جدوى منه .

في أي شيء يختلف هذا الكلب الحكيم عن الاحق والمغفل ؟
قلنا ان الاول يتهمك من أجل التهمك ، ويصدر في سلوكه أو قوله
عن مرارة وخيبة أمل في نفسه وفي العالم . أما الثاني فيسخر
سخريه الساخط الحر ، وان لم يزعم لنفسه انه يقوم بدور المصلح
أو الداعية . ذلك انه يحتر نفسه في مآزق محرجة ، ليبين لنا اننا
نحن ايضا نعيش في مثل هذه المآزق . وهو لا يقسم العالم السى
مخدوعين وخادعين ، وضحايا ومذنبين ، بل يسلم الضحايا الى قدرهم ،
ويبين للمذنبين ايضا انهم ضحايا ومخدوعون . ففي كل مغامرة يقوم
بها وفي كل حكاية من حكايات غفلته وعبطه يثبت لنا انه قد دخل
في مآزق لن يتجوز منه الا بصعوبة ، حتى ليخيل لنا انه يريد في
كل حركة من حركاته أن يدمر نفسه . انه يتعذب ، ولكنه العذاب
الذي يسبق كل معرفة حقة . ولذلك فهو اذا ضحك على ذقون الناس
واضحكتنا لم يتشرف فيهم ولم يحاول أن يثبت انه يعرف خيراً منهم ،
وانما يتجاهل أو يعترف بجعله لكي يفضح من يدعون المعرفة الحقة ،
كما كان يفعل سقراط سواء بسواء . ولكنه لا يهتم بأن يثبت لنا جهل
الغير ، ولا بأن يعلمنا شيئاً لا نعلمه ، بل يكفي بأن يظهر لنا كيف
يتعذب من تعاليم الآخرين ، ويعبر بكلماته المقلوبة عن أمه ، لحوال
« العالم المقلوب » الذي يعيش فيه . انه يكشف لنا عن هذا العالم ،
ويرى انه عالم يقف على رأسه ، ويدعونا ، بغير أن يقول حرفاً ، الى
أن نعيده الى وضعه الصحيح .

ان لفة جحا او اولين شبيجل غالباً ما تكون لفة بسيطة تأخذ
الكلمات مأخذاً حرفياً ، ساذجاً ، سليم النية . انه لا يلعب بالكلمات
ولا يقلبها على وجوها كما يفعل أصحاب النكتة والفحشة ، بل يقصد
معناها الطبيعي القريب ، فيكشف بذلك عن اساءة استخدامها على
اللسنة الناس ، وبين كيف تساهم بدور أساسي في « قلب العالم »
ومسخ كيانه . انها لفة لا تخدع نفسها بأوهام الخيال ولا تنهاى بحيل
الفصاحة ، بل تبين ببساطة كيف تتعرض - وهي لفة الطبيعة والانسانية
الاصيلة - للخطر والدمار وسط لفة جديدة يستخدمها الناس فيسيئون
استخدامها ويعمونها عن وظيفة اللفة الحقيقية . ان لفة هذا المغفل
المسكين ، مثل شخصه ، يعكسان نموذجاً للانسان الذي يبدو لنا

سجينا مجبورا وسط عالم « حر » بينما النظرة الدليقة تكشف عن انه هو الحر حقا وسط عالم يعيش سجين لفته وحيله وشطارته . هذا العالم المقلوب على رأسه لا يدعي الاحق الحكيم انه يعيده الى الوضع الصحيح ، بل يكفي باظهار آله لحاله وعجزه عن اصلاحه . ومع ذلك فلم يكن جعنا ولا اوبلن شبيجل بالمعز الذي يصورانه لنا ، بل ان كليهما ساخر مكار ، ترسم حكاياته وخرافاته عالما أصيلا عريق القدم نحس بالحنين اليه ، كما نحس بالالم لاننا انفصلنا عنه . ان كليهما يبعث عن الحقيقة بالمعنى الاصيل لهذه الكلمة ، او هو صديق للانسان بكل ما في هذه الكلمة من دفء ونبل واخلاص .



في كل يوم نسأل أنفسنا كما نسأل غيرنا : ماذا ؟ لماذا ؟ اين ؟ والى متى ؟ وكسل سؤال من هذه الاسئلة يعبر على نحو من الانحاء عن عدم الوجود فتحن نلف امام شيء غريب علينا ، مختلف عنا ، لا ندرى شيئا عن أصله وسببه ، وقد لا نعرف شيئا عن مكانه وموضعه . ولكننا حين نسأل هذا السؤال معبرين عن غريته عنا نحس بأن هذه الغربة تعود فتشملنا . فتحن أيضا غريبا وضائون . مكاننا في العالم ليس مكاننا ، والنور الذي يحيط بنا لا يضيء في عتمة المصير . أننا سنموت حتما . وسؤالنا عن الشيء الغريب يجعلنا نتعاطف معه ، فهو الشيء الآخر بالنسبة لنا ، كما اننا الآخر بالنسبة له . وفي كل سؤال نسأله عنه نوع من التضامن معه ، لاننا نفتقده ونناسى لما يصيبه . وكل سؤال يعبر عن نوع من الانفصال في الوجود . ولكنه يعبر كذلك عن شوق الى الاتحاد بما نسأل عنه . ذلك لاننا لا تنفصل عنه تمام الانفصال - والا ما أمكننا أن نسأل عنه - وان كنا لا نستطيع مع ذلك أن نتحد به تمام الاتحاد . وحين نصوغ سؤالنا في شكل كلام فانما نقول للانفصال « لا » ، بل ان كل كلمة نقولها تعبر بنفسها عن نوع من الاتحاد بالوجود ونوع من الاحتجاج على الانفصال عنه ، أي على عدم الوجود . ذلك لاننا لا نتحد أبدا مع أنفسنا ، ولا مع الآخرين ، ولا مع جانب من جوانب الوجود أو الوجود كله . فتحن « في » الوجود كما اننا كذلك في مواجهته . وحين نتحدث عن طريق الكلمة أو الحركة فاننا نقيم جسرا الى الوجود، لنصل اليه ، ونتحد به . ومن هنا كانت كل صورة من صور الكلام في نفس الوقت صورة من صور الوجود . لانها لا تصوغ قطعة من الواقع ، بل تجسم الوجود كله . فلفتنا اذن لا تنفصل أبدا عن الوجود ، ولكنها تعبر على الدوام عن انفصال عنه . فالذي يستطيع أن يتكلم ، والذي يستطيع أن يصمت ، كلاهما يعبر عن نوع من الانفصال عن الوجود ، وجهد للتغلب عليه . ذلك لان اللفظة في جوهرها هي قول « لا » لعدم الوجود .

صعوبة قول « لا » هي صعوبة أن نقول لعدم الوجود « لا » . ذلك هو التعريف الاولي لها . ولكن ما هو عدم الوجود ؟ هل يجوز لنا أن نتحدث عنه ؟ وما دما نتحدث عنه ، أليس معنى هذا انه موجود ؟ سيقول بارمينيدز « لا » لانه لا وجود له ، ولكن اذا صح انه لا وجود له فلم يقول « لا » ؟ او بمعنى آخر كيف يستطيع أن يقول « لا » ؟ ليس في كل قول « لا » عدم وجود ؟ الا تشهد قول « لا » بقوة عدم الوجود ؟

هنالك موقف واحد لا نستطيع فيه أن نشك في عدم الوجود . ذلك هو موقف الموت (وهو غير البحث عن الموت أو السعي اليه ، فذلك هو اليأس) . ولكن ماذا يبحث الباحث عن الموت ؟ عن النهاية ؟ وما هي النهاية ؟ أهي الحد الاخير أم نهاية كل الحدود ؟ أهي التحرر من الجبر ؟ ولكن من أي جبر ؟ أهي عدم الحرية أم الحرية التسي لا حد لها ؟

كل كلمة نقولها تجسم عالما . فحيث لا تكون هنالك أجسام ، أو حيث تكون الأجسام قد استقرت معانيها مرة واحدة والى الابد ، فهي لا تجسم شيئا . وكلمة الوجود أو كلمة عدم الوجود تجسم كل منهما عالما . ولذلك فهما مزدوجا المعنى . ولذلك أيضا نحاول أن نحدد

مضاهما في كل ما نقوله وننطق به من الكلام . ولكننا لا نتجح في هذا . وما السبب ؟ لأن العالم مزيج من الوجود وعدم الوجود ؟ أم لأن كل جسم - حتى ولو كان لكلمتي الوجود وعدم الوجود - فهو غير حقيقي ؟ لنقل ان « اللا » التي ننطق بها موجهة الى عدم الوجود . ولكن ماذا نقصد بهذا ؟ هل نوجهها له لانه الشيء الاخر المخالف للوجود ؟ ليس هذا هو السبب . بل لان عدم الوجود هو التجسيم غير الحقيقي ولا المنع ولا الكافي للوجود . وذلك هو معنى احتجاجنا حين نقول « لا » فنعكس الصراع الذي نحس به في أنفسنا بين الحقيقة والخطأ ، والكمال والنقص ، والامل واليأس . لان في كل « لا » نقولها احتجاجا على الجانب السلبي من الوجود ، وتمردا على الانتقاص منه أو الجور عليه أو التفريط فيه . ولقد قلنا من قبل ان الصمت من أبشع الاخطار التي تتعرض لها في العصر الذي نعيش فيه .

وصمت الصامت يكون في بدايته نوعا من الاحتجاج على لغو عقيم لا ينقطع من أفواه الآخرين . انه في هذه الحالة قد يكون صمنا مثيرا ، ونميريا عن كبرياء تأبى مسابرة الانعطاط ، وترفع عن الخضوع للضعف ، ورفض الواحد الذي يفكر لنفسه وينسه الضياع بين الملايين التي تريد أن تفكر له أو تصنع به ما تشاء . ويتطور الامر فتوشك اللفة التي يتكلم بها « الناس » أن تصبح شيئا مفوضا . ومع الزمن يرفض الصامت هذا العالم الذي خلفته اللفة وخلقت له ، ويتجه بكياته الى عالم آخر مسحور يتصور انه في غير حاجة الى لفة . ويعد في غريته فلا يكتفي بان يرفض الكلام لانه خطر عليه ، بل يرفض كذلك الصمت الذي يعده الوجه الاخر للكلام . حتى يصل أو يغفل اليه انه وصل الى حال من الرضا والسعادة التي قد نسميها حالا صوفية ، وان كان من المنطقي الا نسميها بشيء لانها ليست مما نسميه الاسماء . وقد تختلف فنسمي ذلك زهدا أو تصوفا أو جدا ، ولكننا لا نختلف في انه حال اشبه بالحياة في النعيم أو الفردوس ، وانه بجميع درجاته مصحوب بنوع من عدم الاكتراث ، وان أقصى قممه هي حال التلاشي والفناء التي يتحدث عنها البوذيون بوجه خاص .

مهما يكن الامر - وبلا خوض في الحلول التي يقدمها الزهد والتصوف لعيشة العالم وذلك بالفناء فيما ليس بعالم ولا في جدوى هذه الحلول - مهما يكن الامر فلا يخفى على القارئ ان الهروب من المعجز عن الكلام بمعناه الحق حين تبذل اللفة الى الامتناع الكامل عن الكلام (سواء اكان عن رفض أو يأس أو بحث عن طريق اخر للخلاص) لا يمكن أن يكون بديلا عن اللفة ، ولا يمكن أن يحل مشكلة الموقف الانساني المعين بتجاوزها الى ما وراء « اللا » و « النعم » جميعا . ذلك ان في الصمت الحقيقي ، أي البشري ، نصيبا دائما من الاحتجاج ، وفي السكوت المهيب يرن دائما صدى « آلا » . وهذا الصمت مهما طال لا بد أن يكون قادرا في لحظة معينة وموقف معين على أن يخرج عن صمته ويتحول الى كلام يرفض أو يؤكد . والا أصبح هذا الصمت الذي كان في بدايته احتجاجا على امتهان اللفة أو انقضاء لضياح الذات نوعا من التمزق والتدمير والانتحار ، يستر الضعف والفرار ، كما يحاول أن يخفي الترجسية والاعجاب الزائد بالذات . فكما انتهت رغبة نارسييس - بطل الاسطورة اليونانية الذي راح يتأمل باعجاب وجهه الجميل في صفحة النهر حتى غرق فيه ! - في الاتحاد مع نفسه الى الموت ، فان المنتحر يروج كذلك بالموت أن يتحد مع نفسه . فالنفس الفارغة الصائفة نحاول عن طريق الموت أن نعود الى نفسها التي لم تجدها ، وتتحذ بالكل الذي انفصل عنه . ومن العجيب حقا ان المدمر لنفسه - أو المنتحر - الذي كان احتجاجه على « عدم الوجود » في صورة من صوره دافعا له على الاقدام على الانتحار ، هو نفسه الذي يندفع الى العدم ويقول له « نعم » . وبدلا من أن يصمد للحياة ويقاوم ويقول « لا » لكل ما يدمر نفسه ، نجدده يقاوم هذه النفس لآخر مرة لكي يلقي بها بين أحضان « اللا »

قلت الى « الكتل » ولا يتفيد بدائرة أو مجال محدود . ولانه احتجاج يحاول أن ينفذ الى قلب الجميع ، لانه يقصد النموذج الانساني الاسمي في الجميع . ولكن على أي شيء يحتج ؟ ولن يوجه هذا الاحتجاج ؟ وأين هي حدوده التي تجعله تمردا مشمرا لا صراخا أجوف ؟ ليس من العسير الان أن نتبين انه احتجاج من يقول « لا » لكي يؤكد «النعم» ، وسخط من يؤديه « عدم الوجود » الذي يوشك أن ينفذ الى كل مجال ظاهر أو باطن في الحياة من أجل وجود سعيد كامل متحد مع نفسه . انه صرخة « اللا » التي لا تضع في صحراء ، بل تحاول ان تلتف الاذان الى صوت المثل الاعلى ، وتوجه الانظار الى قيمة تتجسد فيها كرامة الانسان وحقه العادل المشروع في السعادة والامان . هو اذن احتجاج على الاخطار الثلاثة التي قلنا انها من أوسع الاخطار التي تواجهنا في العصر الذي نعيش فيه ، وهي ضياع الذات ، وتدمير النفس ، والصمت المفروض على الملايين . احتجاج يواجه هذه الاخطار بالامل والشجاعة ، فيقول « لا » ، ويعمل على تأكيد الذات ، وتكريم النفس ، وتحويل الكلام الى حوار حقيقي بين البشر فيقول « نعم » .

حاشية : كتبت هذه السطور قبل النكبة الاخيرة باربعة عشر شهرا . وأسأل نفسي اليوم : علام احتج ، وكيف ؟ فلا يكون غير جواب واحد : على عدو يحتل أرض وطني الاكبر ، وبسلاح وحيد لا سلاح سواه .

لم يعد امام المفكر والكاظم الا ان يلقي بالقلم ويمسك بالمدفع والبندقية . فان مات كان موته اصدق كلمة يكتبها ، وان بقي حيا استطاع ان يكتب شيئا ينفع الناس .

عبد الفغار مكاوي

القاهرة

انتظروا منشورات

دار المصراي

مؤسسة ثقافية

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس الغرب - ليبيا

شارع جدة المتفرع من شارع الاستقلال

رقم ١٠ - ص.ب. ٢٥٠٠

الطلقة أو العدم المطلق . ومن الواضح ان المدمر لنفسه يتحرك بغير أن يتحرك ، اعني انه يبحث عن المنبع والاصل على الدرب الخاطيء . في حين ان المنبع الحقيقي تقود اليه « نعم » كبيرة ، سواء تصورنا ان هذا المنبع هو الاله في السماء أو الحق أو الجمال أو كرامة الانسان . المنتحر يبحث عن شيء فيندفع الى لجة الآلاشيء ، وكذلك تفعل الإنسانية كلها حين تلقي بنفسها في لجة حرب عالية يدفمها اليها في الحقيقة - كما تبين تحليلات فرويد - دافع الموت وتدمير الذات . ولعل هذا الشوق الفاشل الى المنبع الحق هو علة الفلق والياس الذي نقول اليوم انه طابع العصر ، وتعرف على اناره فيما نقرأ من آذب أو فن أو فلسفة بل فيما نعانيه من تجارب الحياة كل يوم . ومن ثم تصبح مشكلة العصر هي كيف نوازن بين كفتي الفلق والشجاعة ؟ كيف نجد القوة على تأكيد وجودنا المتناهي على الرغم من تهديد الموت والفناء ؟ وبعبارة واحدة : كيف نقول « لا » « لعدم الوجود » على اختلاف صورته الواقعية والانطولوجية (الوجودية) ؟

هنا تصبح مسألة التقلب على الفلق بالشجاعة ، وعلى التطرف بالاعتدال ، وعلى اللامعنى بالمعنى ، مسألة المسائل في الزمن الحديث . ولن نجد هنا أن نزيل الوقوف عند تحليلات الفلق والياس التي نزر بها الكتابات المعاصرة ، فالمشكلة التي تشغل الجميع ، من مفكرين وعلميين ، هي البحث عن قيمة في الاشكال العقلية والحضارية التي فقدت قيمتها ، أو الاضداد الى أشكال جديدة تتجسد فيها قيم جديدة . ولن يكون الحل في تجاهل الفلق من العدم أو تناسي العيب واللامعنى أو انكار الامل في كل القلوب - فكلها حقائق رهيبة في عصرنا - بل يكون الحل في تقبلها ومحاولة البحث عن قيمة توازنها . وليس أخطر على الانسان الحديث من أن يستسلم لها ويقول « نعم » ، لان ذلك معناه ان يفقد ذاته ، ويدمر نفسه ، ويهرب الى نعيم الصمت الشقي . هذا البحث عن التوازن هو الواجب الاكبر لانسان اليوم . ذلك لان القيمة التي تجسد له هذا التوازن ليست قيمة أبدية صالحة لكل مكان وزمان ، وانما هي مثل أعلى عليه أن يبحث عنه بحثا متجددا على الدوام ، ويخلفه في كل تجربة أو موقف جديد . انه تجسيد لمقيدته وسعادته وراحة قلبه ، وهدف لاشواقه واماله واحلامه . ولن تنقطع مفارته في البحث عنه والسعي اليه ، ما دامت تحده الرغبة في التحرر من خيبة الامل والياس والفراغ .

« لا » هي صيغة الاحتجاج .

وقول « لا » أصبح اليوم مهمة الفيلسوف الاولي .

أما قول « لا » فقد تبينا بما فيه الكفاية ان وظيفته الاساسية هي الاحتجاج . وأما الفيلسوف فلنفسنا في حاجة الى تعريفات قديمة أو حديثة نبالغ في شأنه حتى يصبح أسطورة حية ، أو تضع منه حتى ليوشك أن يكون واحدا من البلهاء الذين قد يتسع صدرنا لسماعه ولكننا لا نتردد في طرده والتخلص منه . انما الفيلسوف هنا اسم للانسان الذي « ينصرف الى الكتل » ويدخل كل مجالات الواقع ليبيد رأيه الحر فيها ، دون أن يفلق الباب وراءه أو يتقيد بواجده منها . واذا كان من حقه ان يتكلم عن كل شيء ، فهو حق من يسأل على الدوام ، اعني من يملك في نفس الوقت حرية قول « لا » ، حرية الاحتجاج . فهو في عصرنا اذا احتج على مشكلة العصر كله ، واعني بها تشييء الانسان واهدار ذاتيته وجعله موضوعا يمكن أن يضع به ما يراد له ، وتمزيق العالم بما ينفده ويبعد أعظم وأنفس سكانه (الانسان) عن الوحدة السعيدة ، وعن منبع الوجود الاولي - اذا احتج على هذا كله فهو لا يحتج باسمه فحسب ، ولكنه يحتج على الخيانة التي ترتكب باسم الانسان ، كما يحتج كذلك باسم الظالمين والمظلومين ، والجلادين والضحايا ، لانه احتجاج ينصرف كما